رائد المقاومة السياسية الحديثة في الجزائر
السيد حمدان خوجة (1773ـ 1845)

الدكتور عبد المجيد بن عدة

إنه أحد رجال الجزائر الأوفياء الذين قاوموا الاستعمار الفرنسي بكل ما أوتوا من قوة وبما توفر لديهم من وسائل وإمكانات ، وكان حب الوطن عنده من الإيمان ، عاش كل حياته مدافعا عن دينه ، ومدافعا عن قضايا شعبه ووطنه في الداخل والخارج من دون كلل وملل ، معتبرا ذلك واجبا مقدسا عليه إنه السيد حمدان بن عثمان خوجة الذي اعتبره المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي أحد أبطال القومية العربية المسلمة الجزائرية ورواد الوطنية ، وعين أعيان صدور العلماء بالجزائر ، الذي كان يرجع إليهم في المشكلات وحل المعضلات ، ويستصبح بضوء آرائهم في المدلهمات ، فكان لا يذكر اسمه في قومه إلا مقرونا بالسيادة [1]فمن يكون هذا الزعيم الوطني يا ترى ؟ وما هي جهوده التي بذلها في سبيل النهوض بأمته ومساعيه الحثيثة من أجل استعادة السيادة الوطنية ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال هذه الدراسة .

1 ـ نشأته وتكوينه

ولد حمدان بمدينة الجزائر حوالي سنة 1187 هـ 1773 م من أبوين كريمين والده عثمان كان فقيها ومدرسا وأمينا عاما للدولة ، ولأهمية منصبه السامي كان يلقب بلقب " أفندي "وهو اللقب المختص عادة بالداي نفسه والمفتي الحنفي الذي هو شيخ الإسلام ، أما أمه فهي أخت الحاج محمد أمين السكة وزير المالية يومئذ [2] .

ووفقا لما جرت عليه التقاليد التربوية في ذلك الوقت فقد بدأ حمدان تعليمه الأساسي بحفظ القرآن الكريم و أخذ بعض مبادئ اللوم الدينية واللغوية والقانونية على يد والده وشيوخ البلاد ، ثم راح يجرع من ينابيع العلم والمعرفة بمفرده حيث سعى بمطالعته الخاصة الإطلاع على العديد من الفنون الأدبية ، والمعارف الفقهية والفلسفية والطبية والتاريخية ، أتقن إلى جانب اللغة العربية والتركية والفرنسية والانكليزية كما كان شديد الاحتكاك بشيوخ العلم والثقافة ، باذلا في سبيل التعلم والتثقف كل غال ونفيس ، مضحيا بأوقات راحته وفراغه ، فكثيرا ما كان

يقضي الأيام والليالي الطويلة في نسخ الكتب النادرة المفيدة بيده وتارة يعلق عليها بقلمه ، ولإخلاصه للعلم وأهله أوقف جميع ما تحتوي عليه مكتبته على خزانة جامع كتشاوة [3].

كما مكنته رحلاته العديدة إلى الخارج من الوقوف على مظاهر النهضة والتطور في أقطار أوروبا ، فقد زار أهم مدن ، وتردد مرات عديدة على عاصمة الدولة العثمانية استانبول التي أعجب كثيرا بمناهجها وتعلق بمظاهر الحياة الراقية بها [4]. وزار انكلترا وبلجيكا وسويسرا وفرنسا واليونان ، الأمر الذي ساعده على توسيع مداركه وإثراء ثقافته واطلاعه على قضايا العصر وطبيعة الحياة الراقية بباريس ، وقد تأثر في إحدى زياراته لها عند مشاهدة موكب الملك لويس فيليب وأسرته وهو يتحول في شوارعها ، وهو الذي تعود على أن حاكم الجزائر الداي حسين (1818 ــ 1830) لم يكن ليغامر بالخروج من حصون القصبة التي يقيم بها [5].

كما زار حمدان بعض أقطار المشرق العربي ، ونزل مدينة تونس سنة 1801 م . وتعرف على معالمها وحظي بحفاوة حاكمها حمودة باشا الذي حضر مجلسا له كان يشكو فيه من تصرفات بعض الجزائريين بتونس [6].

وقد مكث حمدان خارج الجزائر نحو سبعة عشر سنة وشهد أكبر التحولات العالمية واجتمع مع رحالات الفكر والثقافة ، وتحاور معهم في مسائل الإصلاح والتجديد ، وعرف مشاكل الساعة العسكرية والسياسية بين الدول الكبرى وشعارات القومية بن الأقليات المضطهدة وأفكار حركة التنوير الإنسانية مترددا على النوادي الفكرية محتكا بالأوساط السياسية متأثرا بالجدل القائم آنذاك بين الليبراليين والمحافظين في انكلترا وفرنسا . [7]

أما عن عناصر ثقافته فيمكن أن نجملها في النقاط التالية::

1 ــ القرآن الكريم، حيث حفظه على ظهر قلب، واستشهد بآياته في مؤلفاته.

2ــ الأحاديث النبوية الشريفة حيث كان يستشهد بها في تدعيم كتاباته وآرائه

3 ــ تبحره في علوم الأصول ، حيث تدل كتاباته على غزارة معلوماته فيها ، فهو يتعرض للأحكام الشرعية مستنبطا أسبابها ، مستدرجا عليه بالأقيسة الأصولية ، يرد الجزء إلى الكل ويحصر الفروع في قواعد عامة تنطبق على الجزئيات ، وتضم أشتات تفرق من شوارد الفقهيات

4ــ تمكنه من الفروع الفقهية ، وتنور أفكاره بعلم المنطق واطلاعه على الآراء الفلسفية والمسائل السياسية والطبية .

5ـ اهتمامه بالتاريخ وفنون الجغرافيا بأقسامها ولاسيما ما يتعلق بالجزائر ويدعم هذا ما جاء في رسالته التي سلمها إلى اللجنة الإغريقية سنة 1833م والتي جاء فيها:»... إنني جزائري محب للإنسانية فمن واجبي أن أعرف أغوار قضية الجزائر ومصدر بؤسها وسبب الحرب فيها، وحقيقة شعوبها قبل الاحتلال الفرنسي وبعده ".[8]

6ـ تجاربه في الحياة ، واحتكاكه بشخصيات عالمية في مجال السياسة والثقافة من خلال الرحلات والمراسلات وتمكنه من ثقافة عصره الأمر الذي جعل منه شخصية ثقافية مرموقة في ذلك الوقت ، قال فيه الدكتور عبد الجليل التميمي : " .. يعد حمدان بن عثمان خوجة الشخصية الجزائرية الوحيدة التي تمتعت بثقافة واطلاع واسعين جدا ، والذي ترك عددا من الوثائق السياسية الهامة حول أحداث الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي للبلاد .."[9]

2- مركزه الاجتماعي والسياسي

ينتمي حمدان خوجة إلى الطبقة الارستقراطية الحضرية بمدينة الجزائر حيث تمتع بالثروة والجاه والقرب من رجال السلطة وأصحاب القرار حيث كان مستشارا لحاكم الجزائر الداي حسين . عاش بالجزائر حياة ميسورة واكتسب ثروة كبيرة حيث درت عليه أعماله التجارية المربحة مردود أملاكه الزراعية فأصبح أحد أثرياء البلد إذ تجاوز رأس ماله ثلاثمائة ألف فرنك، حسب ما صرح به هو نفسه للفرنسيين. وهذا ما أكده القنصل الانكليزي في رسالة له مؤرخة في شهر أفريل 1831م عندما وصف حمدان خوجة بأنه أهم تاجر بالجزائر .[10]

وقدرت السلطات الفرنسية ثروة حمدان خوجة بحوالي أربعين مليون فرنك ، وقد كانت هذه الثروة موضع تباهي حمدان خوجة وافتخاره فهو يعتبرها امتيازا له في الوسط الاجتماعي بمدينة الجزائر .[11]

وقد أورد ذلك في مرآته بقوله :" إنني أملك بسهل متيجة من الأراضي ما يتطلب من البذور من أجل زراعته سنة ستين حمولة حمل م القمح وما بين مائة ومائة وعشرين حمولة شعير ". [12]

وقد تولى حمدان وظيفته مستشارا للداي حسين يطمئن عليه ويعتمد عليه. [13] كما تولى منصب التدريس في الجامع الجديد حيث كان يدرس التفسير والحديث.[14]

3ـــ كفاحه السياسي ضد الوجود الفرنسي في الجزائر

كان للسيد حمدان خوجة دور ريادي في مقاومة الاستعمار إثر سقوط مدينة الجزائر في يد الغزاة سنة 1830م فقد بذل كل ما في وسعه من أجل إنقاذ البلاد من براثن الاحتلال ، وهو في كل ذلك يعبر عن إرادة صادقة في استرجاع السيادة الوطنية . فقد " دعا إلى حركة استقلال سياسي عبر إقامة حكومة مستقلة مرتبطة بفرنسا بعلاقات طيبة ". (15)

في بداية الأمر كانت مقاومة حمدان خوجة لإرادة الاحتلال سرية إلا أن إمعان الفرنسيين في نقض بنود معاهدة 5 جويلية 1830 وما تبع ذلك من دوس لحقوق الجزائريين وعمليات السلب والنهب لممتلكاتهم ـــ بما في ذلك ممتلكات حمدان ـــ جعل الوطنيين الجزائريين وعلى رأسهم حمدان يعلنون المعارضة المفتوحة للاحتلال متشجعين بشكاوي المواطنين حيث بعثوا بنداءات ومطالب وعرائض ومذكرات إلى السلطات الفرنسية في الجزائر وفي فرنسا ، مطالبين فيها بضرورة جلاء الجيش الفرنسي من الجزائر ، شارحين مظالم الجزائريين المترتبة عن التصرفات المشينة للفرنسيين ضد المواطنين . فقد بعث حمدان خوجة برسالة شخصية إلى الملك لويس فيليب بتاريخ 10 جويلية 1833م طالبا منه التدخل شخصيا لإنقاذ الموقف ومذكرا له أن للجزائريين الحق أيضا في التمتع بالحرية وكل الفرص التي تتمتع بها الأمم الأوروبية .(16)

كما قدم حمدان خوجة بتاريخ 3 جوان 1833 مذكرته الشهيرة إلى وزير الحربية الفرنسية الماريشال سولت والتي كشف له فيها عن الكثير من جرائم الاستعمار وانتهاكاته الصارخة لحقوق الجزائريين ومن ذلك قوله في إحدى مذكراته :" ... هدموا أملاكنا وأملاك الأوقاف ، وادعوا أن الهدم لتوسيع الأزقة ولعمل البلاصة ... كما استحوذوا على أماكن العبادة وحازوا عليها، وبما فيها... أخذوا بساطات جوامعنا وافترشوها في ديارهم ...من يوم دخول الفرنسيين الجزائر إلى يومنا هذا لم يزالوا يحفرون مقابر آبائنا وأجدادنا يستخرجون الآجر والأحجار فيبنون بها ، وعظام موتانا فيبيعونها...(17)

وتحت ضغط الوطنيين الجزائريين ، وعلى رأسهم حمدان خوجة الذي كشف مساوئ المحتلين في الجزائر ، شكلت الحكومة الفرنسية لجنة لتقصي الحقائق والنظر في مستقبل الجزائر عرفت باللجنة الإفريقية وذلك في صيف 1833 حيث مثل أمامها حمدان في جلسة 14 جويلية 1833م ولفت انتباه رئيسها إلى التجاوزات التي حدثت في حق الجزائريين ، وبعد بحث طويل

قدمت اللجنة الإفريقية تقريرا استنكرت فيه تصرفات الجيش الفرنسي بهذه العبارات :" لقد حطمنا ... ممتلكات المؤسسات الدينية، وجردنا السكان الذين وعدناهم بالاحترام، وأخذنا الممتلكات الخاصة بدون أي تعويض.. وذبحنا أناسا كانوا يحملون عهد الأمان.. وحاكمنا رجالا كانوا يتمتعون بسمعة القديسين في بلادهم.. لأنهم كانوا شجعانا صارحونا بحالة مواطنيهم المنكوبين ." ولكن اللجة أوصت بالإبقاء على الجزائر "ملكا " لفرنسا وأصدرت قرارا في سنة 1834 م يعتبر الجزائر أرضا فرنسية "[18]

ونظرا لحملة التنديد والرفض للممارسات الاستعمارية في الجزائر التي قام بها حمدان خوجة ضد عمليات النهب التي طالت الممتلكات ، وأساليب الدمار والخراب التي مست المؤسسات الدينية والعلمية والثقافية فقد أقدمت سلطات الاحتلال على نفيه مع باقي رجال حزب المقاومة من البلاد متهمة إياهم بالتآمر على حكم المحتلين .

لم يستسلم السيد حمدان خوجة وهو بمنفاه بباريس لسياسة الأمر الواقع و لم يقبل أبدا أن يسكت عن الجرائم الاستعمارية المقترفة في حق بلاده وشعبه ، بل راح يسعى بكل الوسائل قصد الحصول على جلاء الجيش الفرنسي من الجزائر والاعتراف بالكيان الجزائري .[19]

فقد اتصل بالسلطان العثماني محمود الثاني [20] يطلب منه المساعدة والتدخل لإنقاذ الجزائر من خلال رسالة بعثها إليه جاء فيها: «.. إن المسلمين الذين استشهدوا ودفنوا في هذه التربة سوف يسألونكم يوم الحساب لماذا تخليتم عنهم ، إن عبدكم لا يستطيع أبدا أن يبر عن قلقنا وشقائنا حول هذا الموضوع ليأخذ السلطان بعين الاعتبار ما حل بنا من مصائب ليدرك ذلك جيدا حتى يقدم لنا المساعدة والمعونة". [21]

وعندما ضاقت السبل بالأمير عبد القادر لم يجد من يقدم له الدعم والمساعدة في كفاحه ضد الفرنسيين بعد نقض معاهدة التافنة وتجدد الحرب مع جيش العدو منذ نوفمبر 1839 بعث برسالة إلى السيد حمدان خوجة متوسلا من خلالها إلى السلطان العثماني عبد المجيد [22] حتى يلتفت إلى مسلمي الجزائر فيقدم لهم يد العون والمساعدة فيقوون بالتالي على المقاومة والجهاد ، وكان هذا بتشجيع من خوجة نفسه يقول الأمير عبد القادر في رسالته المؤرخة في 15 شوال1257هـ ، 10 ديسمبر 1841 م ...فاعتمدنا إشارتك بهذا الرأي الرشيد ، واستعطفنا سيدنا مولانا السلطان عبد المجيد ، وعرضنا على حضرته العلية حالنا وعرفناه أفعالنا وأقوالنا ،

لعله ينظر إلينا بعين الرحمة والإشفاق وينقذنا بكلمته المسموعة وهذا ... فإننا أشرفنا على البلاد (كذا) والكافر على الاستيلاء ، ومن كان في عون أخيه كان الله معه ، فإذا أستشرفك سيدنا على كتابنا إليه ، فأكد ملامحه ما تلقى الله به و عليه، وإن بيننا وبينك ثدي الإسلام ورحمه وقد درسوا آثاره ومعالمه ، فهل لك في أحياء موات أرضك ويكون لك فيه أكثر من غلة أبيك وجدك وإننا من الله إخوان والله المستعان ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ..."[23]

وفي رسالته التي بعثها إلى صديقه محمود [24] باستنبول سنة 1250 هـ كشف حمدان عن تشبثه الكبير بالجزائر ، حتى وغن شكل ذلك خطرا على حياته ، وكذا عن حاجة الجزائريين الماسة إلى المساعدات السلطانية لأن المحتلين نكثوا كل المواثيق والعهود التي أبرموها مع الجزائريين وفي ذلك يقول :"... ولو أن الكفار يعلمون شطر ما فعلت من تحريرات وتأليف كتب ومراسلات مع الأجناس وغير ذلك مما لا أقدر على تحريره لأكلوا لحمي وأوقعوا بي ... عرفوا سلطاننا أعرضوا عليه حالنا، استعطفوا لنا بشفقته ورحمته السلطانية، أنا جاهدت بقلمي والرعية بسيوفهم فجاهدوا بألسنتكم... فالغوث الغوث لحال أمة سيدنا محمد (ص)، اعلموا سلطاننا بحال الإسلام والمسلمين وإن امتنعتم فهذا خط يدي أرسلوه ... الغياث الفرنسيس لا يخرج من الجزائر إلا بقوة سلطاننا ومواعيده لا أصل لها وتعديه كل يوم يزداد وليس فينا من يبلغ سلطاننا هذا الحال الله لا تقصروا وبادروا وداركوا أمة سيدنا محمد (ص).. [25]

كما لم يدخر السيد حمدان خوجة جهدا في سبيل تنسيق جهود المقاومة المسلحة ضد المحتلين والتي كان يتزعمها في الشرق الحاج أحمد باي ، وفي الغرب الأمير عبد القادر فقد نصح هذا الأخير بضرورة إبداء اعترافه الصريح بالسلطة الروحية للسلطان العثماني على مسلمي الجزائر ، كما أشعر أحمد باي بفضل الأمير وصدق عزمه على محاربة الفرنسيين واقترح عليه في إحدى رسائله تنسيق الخطط في مهاجمة الفرنسيين بقوله :" والآن تحولت محبة عبد القادر للفرنسيين إلى المخاصمة واتخاذه الحرب والعداوة فسلط عليهم صناديد العرب وأوقعوا وكسروا شوكة الكفار وأوهنوا قواهم ولله الحمد فنرجو أن يوافق ذلك مقترحكم ويكون لكم فيه راحة بل غنيمة أن يمكنكم والحالة هذه أن يسلطوا على الكفار بمن معكم من شجعان العرب و أن تقعدوا لهم كل مرصد ."[26]

بل إن السيد حمدان خوجة الذي كان مدركا كل الإدراك لطبيعة العلاقات الدولية وميزان القوى العسكري الذي كان مختلا بين الشرق والغرب لصالح هذا الأخير هو الذي جعله يدعو للتنسيق والتعاون بين البلدان المغاربية (تونس ـــ الجزائر ـــ ليبيا) كيف تحشد قواها وتقف صفا واحدا في مواجهة القوى الخارجية المعادية التي تتربص الدوائر بالشعوب المغاربية ، وتريد النيل منها ومن سيادتها " إن التفاهم بين هؤلاء الحكام الثلاثة،يشكل المعقل والقوة الأخيرة للبلاد."[27]

وبناء عليه يمكن القول بأن السيد حمدان خوجة كان رائد الدعوة للوحدة المغاربية قبل أن تنضج وتتبلور هذه الفكرة وتتضح معالمها عند المثقفين المغاربة في القرن العشرين .

كما يعود للسيد حمدان خوجة الفضل في قيام صديقه الانجليزي " بنمتير"بتحرير كراسته المشهورة التي تحمل عنوان "نداء من اجل الجزائر " والتي قام بتوزيعها على مواطنيه وبإيحاء منه أيضا (أي من حمدان) قام أعيان بايلك الشرق بإرسال عريضة للبرلمان الانجليزي يطلبون فيها دعم ومساندة هاته البلاد " وهي المعروفة بمواقفها في الدفاع عن حقوق الإنسان ومن اجل تحريره " وفي مقاومتهم ضد فرنسا التي تتحدى هذه الحقوق وباتباعها سياسة الإبادة ضد الجنس البشري الجزائري ، فليس هناك مثال للجور يمكن مقارنته بالطغيان الفرنسي فهو يتجاوز خيال الطغاة منذ أن خلق الله آدم إلى يومنا هذا [28]

ويرى حمدان خوجة أن الأمة الجزائرية والأمة الفرنسية لا يمكن أن تتعايشا في الجزائر حيث لا يوجد تشابه بينهما ، لأنهما تدينان بدينين مختلفين ، وتتكلمان لغتين مختلفتين وتلبسان ثيابا مختلفة والشيء الوحيد الذي تستطيع فرنسا أن تفعله في مثل تلك الظروف هو تأييد فكرة الكيان الجزائري كما فعلت مع اليونان وبلجيكا، ذلك أن الكيان الجزائري له الحق في الوجود، وأن الجزائريين لم يكونوا أقل تنويرا من معاصريهم الأوروبيين في تنظيم حكومة من اختيارهم الخاص، وانتخاب أمير من أنفسهم ليحكمهم... إن الجزائر لها الحق في الوجود كأمة حرة مستقل..."[29]

فالجزائريون في نظر حمدان خوجة يشكلون أمة مثل كل الأمم الأخرى وفي ذلك يقول مخاطبا الأوروبيين... إنكم تعطون الملايين لليونانيين وللبولونيين وتنجدون تلك الشعوب انكم تستغلون هذا البلد المسكين ومع ذلك فإن الجزائريين بأموال الجزائريين أيضا أناس... ماهي الذنوب التي اقترفوها لتسلط عليهم مثل هذه العقوبات ان التاريخ سيجل كل هذه الأعمال الشريرة [30]

4- آراء حمدان خوجة التجديدية والإصلاحية

كان للأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية المزرية في الجزائر والعالم الإسلامي آنذاك أثر كبير في ظهور نزعة التجديد والإصلاح عند حمدان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث أدرك ببصيرته الثاقبة أن موقف المحافظين من العلماء المسلمين الذين أخذوا بظاهر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فأغلقوا باب الاجتهاد والتزموا التقوقع واعتبروا كل شيء أخذ عن غير مسلم كفرا هو السبب في تخلف العالم الإسلامي بالرغم أنه كان سباقا للحضارة.

وانطلاقا من كل هذا فقد ناشد حمدان السلطان العثماني محمود الثاني ضرورة وضع حد للأعمال العقيمة التي كان يقوم بها هؤلاء لأن في ذلك إصلاحا للمجتمع الإسلامي ومنطلقا لتطويره وفي ذلك يقول:"يجب على السلاطين وعلى أولي الأمر ...أن يبادروا بإصلاح ما يدخل عليهم الضرر(على الرعية) ولا يرخص لهم بعد تحقيق ذلك أن يساعدوا الجهال على تعصبهم وجهلهم كما يجب عليهم تغيير الرسوم التي لم يأمر الشرع بالتزامها إذ كان في تغييرها دفع مضرة أو جلب منفعة [32]

وينصح حمدان المسلمين بضرورة العمل بسنة التغيير ومسايرة روح العصر فيقول"..إن كل عصر له متطلبات وخصائل جديدة، ولدى ظهور عادة حديثة ، وجب التخلي عن القديم حتى نتفادى حدوث اضطراب وقلق في الشعب، وحتى لايعرقل ذلك دولاب الإدارة الناجحة لينتقد بعدها الحكام الذين لم يطبقوا الشريعة الإسلامية لأنهم لم يفهموا جيدا مبادئها السمحة، والتي من بينها أن ظروفا تترتب على الزمن وحاجات الإنسان لم تتوقعها القوانين ومن ثم وجب على كل مشرع أن يفهم هذه الضروريات [33] ليعمل على إيجاد طريقة حكيمة لتطبيق القوانين

ودعا حمدان إلى الاعتدال والابتعاد عن التطرف والغلو ، وضرورة القيام بالعدل والإحسان ، واجتناب التعصب المقيت الذي يقضي إلى ما لا يحمد عقباه في حياة الناس وفي ذلك يقول : ... فإن التوسط في الأمور هو الركن الأقوى ، والعدل الأقرب للتقوى وما من خصلة إلا طرفيها ذميم ، وإعطاء كل ذي حق حقه هو مقتضى حكمة الحكيم حتى أن طول الأمل على ما فيه قد يحمد بلسان السياسة ، ويأمر به خصوصا ذوو الرياسة .كما أقوال الحكمة وأفعالها لا يستنكف العاقل عن اقتنائها لضعة من فعلها أو قالها بل يبادر للحق و وقبوله واستجلاب النفع

، ولما رأيت الخلل داخلا على المسلمين بإهمال هذه القواعد وأفكارها والتزام التقشف والتعصب في عدم دفع المضرة وملاحظة أغوارها في كثير مما ابتكره الفرنج بدعواهم ، واشتهرت نسبته إليهم مما يتعلق بأمر دنياهم حتى شدد بعضهم النكير على الذين يستحسنونها وعدوا ما يطرأ لهم من المضرة قربة يحتسبونها .. .[34]

وأكد حمدان لمعشر المسلمين على ضرورة العناية بالوقاية الصحية ، وذلك بتطبيق ما عرف آنذاك بالحجر الصحي [35] الذي كان معمولا به في أغلب بلدان أوروبا بينما لم ينظم أو يعمم في البلاد الإسلامية ، وفي ذلك يقول عن الأوروبيين : " حيث التزموا لدفع الوباء عنهم ما جربوه من الاحتماء والاحتراز بالاستقراء في عدم إدخال الداخل إليهم ، إلا بعد تحقيق البراءة والاستبراء وجعلوا لذلك حكاما في أماكن حصينة مع غاية الاحتياط وسموا ذلك"كرنتينه ". [36]

وحسب حمدان يمكن للمسلمين أن يأخذوا من الأوروبيين ولا حرج في ذلك ما دام في ذلك تحقيق للمصالح ودفع للأضرار والمهالك " ...لا بأس بأن يستعان برأي الإفرنج إذا ما اقتضى الحال ذلك في هذا الأمر إذ قد تمرنوا في كيفية الاحتراز وقطع أثر الوباء ولا نقول أنهم سبقوا إلى أصله لما ورد في احتراز الصحابة في من بعدهم إلا أن الإفرنج بمقتضى اعتنائهم بأمر الدنيا قد جربوا كيفية الاحتراز و حققوا قواعد الطب حين أهملها المسلمون ، كما جربوا قطع أثر الوباء في كرنتيتهم وهو مشكل ...فلا بأس بالاستعانة برأيهم ... [37]

كما ثار حمدان خوجة على المتزمتين إلي ن ينفرون و ينفرون الناس من اللباس الأوروبي الذي لا يرى مانعا أو حرجا من ارتدائه مادام فيه فوائد و لا يتعارض مع تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة كل ما يلبسه أهل زماننا لم تعرف في زمانه صلى الله عليه وسلم – و لا في زمان الخلفاء الراشدين بل هي من جملة المباحات على ما هو أصل في الأشياء ... إن قصد (بهذه الملابس)خفتها لأجل الجهاد أو لطاعة خليفة الله في أرضه ، فإنه يثاب بلا شك ، فإن كانت لزيادة حسنها و حسن منظرها فهو مباح بمنزلة أكل لذائذ الأطعمة التي اخترعها الكفار [38]

و انتقد خوجة ما كان رائجا في زمانه من خرافات و بدع و انحراف عن تعاليم الإسلام حيث وصل الأمر إلى تألية و عبادة الأشخاص المدعين للولاية و يتسمون بالمرابطين مستغلين في ذلك الجهل الذي استشرى في الأوساط الشعبية إن الاعتقاد الشعبي إزاء المرابطين أساسه الجهل

و التعصب و المبادئ الخاطئة ،و ليس من السهل إصلاحها ، إن هذا النوع من العبادة غير معقول خاصة و أن مبادئ الدين الإسلامي لا تسمح بتألية الآدميين [39]

و نبه السيد حمدان خوجة إلى المخاطر التي تهدد الأمة الجزائرية المسلمة بسبب الاعتداءات الفرنسي على المؤسسات الدينية و الاجتماعية و الثقافية الجزائرية ، حيث عمدت إدارة الاحتلال على وضع يديها على مؤسسات الأوقاف الإسلامية التي كانت تسهم بشكل فعال في رعاية أماكن العبادة و المؤسسات التربوية [40] و قيامها بهدم سوق الكتب وهو السوق المسمى بالقيصرية في العاصمة و كان يجمع ناسخين و باعة كتب و في ذلك يقول حمدان خوجة : ...لقد أمر السيد الجنرال كلوزيل بتهديم محلات تدعي القيصرية ، كانت تبيع الكتب التي هي أدوات الحضارة ، و التي تنير درب الإنسان المثقف ، و فيها كان يوجد الناسخون ، لأن المطابع معدومة في إفريقيا ،و بما أن الفرنسيون كانوا ينوون إدخال الحضارة إلى إفريقيا فلماذا وقع تهديم هذا المصدر الذي كان يعطي العلم و المعرفة في جميع الميادين ؟ إن هذا الجنرال ينوي إغراقنا في الظلمات و الجهل .[41]

و مما كان يحز في نفسية حمدان خوجة هو احترام المحتلين لممتلكات اليهود و أماكن عبادتهم في الوقت الذي كانوا يتسلطون فيه على مؤسسات المسلمين الروحية و التربوية كأنها ملكا مشاعا ها لهم ، ضاربين عرض الحائط كل المعاهدات و الالتزامات التي كانوا قد وقعوا عليها و التي من ضمنها احترام حرية الدين .

إن دفاع السيد حمدان خوجة عن مؤسسا بلاده الدينية و الثقافية و الاجتماعية ضد كل أشكال الطمس و الانتهاك و الأفكار التجديدية و النهضوية التي كان يدعوا إليها و يبشر بها ترفعه إلى مصاف الزعماء الكبار ، و المجددين العظام في العالم الإسلامي الحديث و قد اعتبر الدكتور عبد الكريم بوصفصاف رسالة إتحاف المنصفين و الأدباء ... لحمدان من المؤلفات النادرة في العالم الإسلامي عامة والجزائر بوجه خاص في النصف الأول من القرن التاسع عشر لأنها تعالج موضوعا حيويا في حياة المجمع الجزائري المجتمع الإسلامي قاطبة وهو الوقاية من الأوبئة الفتاكة التي ضربت الجزائر ثلاث مرات في عصر المؤلف [42]

5- إنتاجه العلمي و المعرفي

تمثل كتابات حمدان خوجة ، حوصلة عامة لثقافته ، و تجاربه في الحياة و تقلبه بين النعمة و النقمة ، حيث عاش في المرحلة الأولى من حياته في ظل السيادة الجزائرية ، بل كان أحد أعيان الدولة ، ورموزها السياسية والثقافية .

أما في المرحلة الثانية من حياته (أي بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830 م فقد عاش و عايش القمع و الاستبداد و المطاردة و النفي من الوطن ، لأنه رفض سياسة الأمر الواقع و تقبل العيش تحت سلطة الرومي .

وانعكس ذلك كله على كتاباته التي لم تكن في الحقيقة سوى جهادا منه ضد أعداء الدين والوطن وتبصيرا لقومه من الواقع المزري الذي آل أمرهم إليه. ولقد امتازت مؤلفات حمدان بالروح المتفتحة والأفكار المتجددة المدعومة بالحجج القوية متسما ذلك بقدرة كبيرة على دحض وتفنيد ادعاءات سلطان الاحتلال الباطلة والكاذبة ، ومواجهة أولئك الشيوخ الجامدين بأدلة النقل والعقل ومن مؤلفاته

1 ــ المرآة ألفه بباريس سنة 1833 م باللغة العربية ثم ترجمه صديقه الليبي حسونة الدغيس إلى الفرنسية تحت عنوان " لمحة تاريخية عن إحصائية عن أيالة الجزائر المعنون بالمرآة لكي يطلع وزراء الحكومة الفرنسية على مساوئ الإدارة المدنية الفرنسية بالجزائر ، حسب ما ذكر ابنه علي رضا باشا في كتابه مرآة الجزائر في النسخة التركية المترجمة عن العربية .

يتألف كتاب المرآة من ثلاثة عشر فصلا تمس مختلف أوضاع الجزائر ، استهلها بمقدمة أثار فيها تساؤلات حول الوضع الصعب الذي كانت تعيشه البلاد الجزائرية ، وبين فيها الأسباب التي دفعته إلى التأليف والهدف الذي قصد به أن يكون جوابا شافيا وشرحا مفصلا للحالة التي آلت إليها الجزائر .

أما فصول الكتاب فقد تناول فيها المؤلف أوضاع الجزائر الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بصفة شاملة وبنظرة متفحصة ومعلومات جديدة تعكس اطلاعه على أحوال البلاد ، وتظهر مدى معرفته بواقع الإدارة الجزائرية العثمانية بعضها كان نتيجة ثقافته الشخصية وبعضها استقاه من الحكام والموظفين والتجار الذين كان على اتصال بهم وفي طليعتهم أصحاب النفوذ من التجار اليهود مثل بكري وبوشناق وقد أشار إلى أحدهما في قوله :" لقد أخذت عن هذا الشريك نفسه هذه المعلومات ."

ويعد المرآة من أهم المصادر التي تكلمت عن تاريخ الجزائر في أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي ، حاول فيه حمدان قدر المستطاع استخلاص النتائج انطلاقا من المعلومات التي عرضها والوقائع التي سجلها وهو في ذلك يهدف إلى إقناع القارئ والمتلقي ، ملتزما الدقة و الصدق في تسجيل الأخبار لأنهما ضروريان لإقناع مخاطبه ، كما عمد إلى ترتيب المعلومات ومقارنتها مما أكسبها منطقية وقربها من ذهن القارئ [43]

2 ــ إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس م الوباء وهي رسالة في حفظ الصحة العمومية ألفها سنة 1252 هـ وقدمها إلى السلطان العثماني المصلح محمود الثاني مصدرة بقصيدة رائية تحتوي على واحد وعشرين بيتا [44] كلها في مدح السلطان ، والاستنجاد به على نوائب الظهر ومرارة الغربة وفراق البلد المحبوب .

وكان الهدف من وراء هذا التأليف هو الرد على المتزمتين الذين لا يقبلون بالتغيير حتى وصل بهم الأمر إلى حد ترك الأسباب التي حث عليها الشارع ، وحذر من عواقب التفريط فيها [45] ، ومن بين الأسباب ، التمسك بعرى الوقاية ، والأخذ بمقابض الاحتماء من جيوش الوباء التي اجتاحت العالم الإسلامي آنذاك . [45]

يضم التأليف مقدمة وثلاثة أبواب تناول في المقدمة مسائل عامة كدفع الأذى والتسيب والعلل ، وقضية تقدم الأوروبيين في العلوم الرياضية والطبيعية ، وتعرض يضم التأليف مقدمة وثلاثة أبواب تناول في المقدمة مسائل عامة كدفع الأذى والتسيب والعلل ، وقضية تقدم الأوروبيين في العلوم الرياضية والطبيعية ، وتعرض إلى فكرة الاحتراز من الوباء عن طريق الحجر الصحي وطالب بتطبيقه في البلدان الإسلامية قصد توفير الصحة وضمان المعاش وقوة الدولة ، أما الأبواب الرئيسية فهي :

الباب الأول : يدور حول الأدلة النقلية والعقلية على جواز الفرار من الوباء .

الباب الثاني: جواز الاحتراز من الوباء شرعا.

الباب الثالث : بيان تطبيق (الكرنتينه) وفيه ناقش خوجة ما إذا كان يتعارض مع الدين الإسلامي ، ثم بين كيف طبق الغربيون ذلك ، وبعد الخاتمة دعا المسلمين إلى مبادرة تطبيق الاحتراز ، عند مداخل عاصمة الدولة العثمانية مدينة (استانبول) والاستعانة بتجارب الغربيين في هذا الميدان . [46]

3 ــ حكمة العارف بوجه ينفع :وهي رسالة ما تزال مخطوطة ــ حسب علمناــ ألفها بإستانبول سنة 1833 تناول فيها مسألة " ليس في الإمكان أبدع مما كان " المنسوبة لأبي حامد الغزالي ، حيث ناقش المسالة مناقشة مستفيضة ، وانتهى إلى تأكيد هذه المقولة (47)

4 ـــــ ترجمة كتاب " نور الإيضاح ونجاة الأرواح للشيخ حسين الشرنبلالي الحنفي (1585. 1656) من اللغة العربية إلى التركية وسماها " أمداد الفتاح " وهي في الفقه الحنفي.

ومما كتبه خوجة في المقدمة قوله : " امدادك يا فتاح امددنا بيسر التوفيق ونور الإيضاح ، فتحمدك اللهم بما حمدت به نفسك ، ونمجدك بتمجيدك ونترجم ما انطوت عليه ضمائرنا من شهادة توحيدك وقائلين أن لا إله إلا أنت شهادة اليقين والإخلاص مقرين بما جاء به أنبياؤك ورسلك ذوو العصمة والاختصاص ونشهد أن سيدنا و مولانا محمد عبدك ورسولك رحمة إلى كافة الخلق أجمعين ... ونبذل جهدنا بالتحصيل موجبات الإخلاص على قدر الاستطاعة في الدعاء لحضرة السلطان الذي أوجبت له يا رب السمع والطاعة.. (48)

5 ـــــ مخطوط ضخم هو عبارة عن ملخصات ونسخ وفتاوى لشيوخ وعلماء من المشرق والمغرب. (49)

6 ـــــ مذكرة قدمها للجنة الإفريقية في جويلية 1833 م والتي تعتبر الوجه الثاني للمرآة تحتوي على قضايا هامة ، حلل ووصف من خلالها خوجة طبيعة الشعب الجزائري ، واضطهاد السلطة الاستعمارية له .

وفي نظر الأستاذ سعد الله أن ما قدمه خوجة لا يدخل في عداد المذكرات لأن ما كتبه في المذكرة كان عبارة عن وجهة نظر في نقد السياسة الاستعمارية ، وحل القضية الجزائرية وليس تعبيرا عن تجاربه في الحياة ووصفا لحياته وتقلبات الزمان به ، وانجازاته كما هو شأن المذكرات (50)

7 ـــــ رسائل عديدة تبادلها مع شخصيات عصره في أغراض متعددة ومن هذه الرسائل نشرة ممضاة باسمه رد فيها على مقال صدر بمجلة مراقب المحاكم.بتاريخ 25 جويلية 1834 م بعنوان " تقاييد على كتاب حمدان خوجة" . (51)

توفي السيد حمدان بن عثمان خوجة باستانبول حوالي سنة 1261 هـ الموافق لـ 1845 م، بعد رحلة عمل قضاها كلها في خدمة الجزائر والعالم الإسلامي و أشاد به و بمجهوده الكبير في عالم الكفاح والتجديد الكثير من الدارسين . فقد ذكر عمر راسم بأن حمدان لم يكن كاتبا سياسيا فقط ، بل كان عالما دينيا من أكابر علماء عصره . [52]

أما الأستاذ محمد بن عبد الكريم الجزائري فقد اعتبر خوجة بأنه أول من نادى بالجزائر للجزائريين [53] وقال عنه الدكتور سعد الله بأنه ليس رائدا للوطنية الجزائرية فقط ، ولكن رائدا أيضا لفكرة الجامعة الإسلامية والقومية العربية اللتين أصبحتا ، بعد عدة عقود ، حركتين قوميتين . وبالإضافة إلى ذلك ، فهو رائد في العالمين العربي والإسلامي " لعصر التنوير " الذي نتج عن الاتصالات الثقافية بين الشرق والغرب [54]

كما اعتبره الأستاذ محمد العربي الزبيري من أكبر مفكري العالم الإسلامي الذين ظهروا في القرن التاسع عشر ميلادي وتتجلى دعوته وأفكاره واضحة في دعوته لليقظة الشاملة ومن خلال نظرته للحكم واتجاهاته القومية . [55]

و بالنسبة للدكتور ناصر سعيدوني يعتبر خوجة في طليعة المثقفين المسلمين الذين دعوا إلى الأخذ بالقيم الحضارية الغربية في مجتمعاتهم ، كما يعتبر واضع أساس مطالب النخبة السياسية الجزائرية في الربع الأول من القرن العشرين . [56]

الهوامش

1. عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائري الهام ، الجزء 4 دار الثقافة بيروت ط (4) 1980 ، ص 32
2. الجيلالي ، نفس المرجع جزء 4 ، ص32
3. الجيلالي ، نفس المرجع جزء 4 ، ص33
4. ناصر الدين سعيدوني ، من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ط (1) بيروت 1999 ، 487
5. سعيدوني ،نفس المرجع ، ص488
6. سعيدوني ، نفس المرجع ، ص 487
7. أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، الجزء 2 دار نافع للطباعة و النشر القاهرة ط (2) 1977 ص 29-30
8. أنظر مقدمة الأستاذ بن عبد الكريم لرسالة حمدان خوجة " إتحاف المنصفين و الأدباء عن الاحتراس من الوباء " الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ط (1) 1968 ، ص 16 و ما بعدها
9. عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1816-1871) الدار التونسية للنشر 1972 ص 133
10. سعيدوني ، نفس المرجع ، ص 488
11. سعيدوني ، نفس المرجع ، ص 488
12. حمدان خوجة ، المرآة تعريب محمد العربي الزبيري ، ش.و.ن.ت. الجزائر 1982، ص
13. محمد العربي الزبيري ، مذكرات أحمد باي و حمدان خوجة بوضربة ش.و.ن.ت الجزائر، ط (2) 1981، ص 137
14. محمد علي دبوز ، نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ، ص 133
15. أنظر ساجد أحميد عبل ، الشيخ عبد الحميد بن باديس و الوعي القومي المستقبل العربي عدد 254 200، ص 59
16- سعد الله ، الحركة الوطنية ... الجزء 2، ص 31

17-التميمي ، نفس المرجع ص 147 وما بعدها .

18 ــ فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال المغرب.
ص 92 وسعد الله ، الحركة الوطنية ... الجزء الثاني، ص 33

19ــ سعد الله، الحركة الوطنية، الجزء الثاني ، ص 31

20-هو السلطان محمود الثاني ، بن عبد الحميد الأول ولد سنة 1200 هـ
وتوفي 1255 هـ دام حكمه 32سنة ، وهو الذي بادر بإدخال الإصلاحات
على الجيش العثماني وأوفد البعثات إلى أوروبا وأسس لمدارس الحديثة ، قضى على
المعادين للإصلاحات في حادثة الخيرية سنة 1826 . للمزيد أنظر محمد فريد بك المحامي،
تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار النفائس بيروت 1981 ، ص 398 وما بعدها
والدكتور خالد زيادة اكتشاف التقدم الأوروبي ، دار الطليعة بيروت ط 11981
وما بعدها

21 ــ التميمي ، بحوث في تاريخ ...ص 169 ــ 170

22 ــ حكم السلطان عبد المجيد من سنة 1839 إلى غاية 1861 . للمزيد أنظر خالد
زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي...ص 96

23 ــ التميمي ، بحوث في تاريخ .. ص 228

24 ــ بين السيد حمدان لصديقه محمود بن أمين السكة أن استرجاع الجزائر لا يمكن أن
يتحقق إلا باستعمال القوة . أنظر عميراوي ، دور حمدان ...ص 171 .

25 ــــقنان،ل قنان ، نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر
(1830 ــ 1974) ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1993 ، ص 73ــ 74

26 ــ ناصر الدين سعيدوني ، الجزائر ، منطلقات وآفاق، دار الغرب الإسلامي ، بيروت
ط (1)118ــ 200

27 ــ التميمي ، بحوث في التاريخ .. ض 172

28ــ جمال قنان ، جذور توره نوفمبر 1954 ، مجلة الذاكرة العدد الخامس أوت
1998 منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، ص 12، 13

29 ــ سعد الله ، الحركة الوطنية .. الجزء 2 ص 34 و عميراوي ، دور حمدان. ص 80

30.حمدان خوجة ، المرآة تعريب و تحقيق محمد العربي الزبيري – الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1982 ، ص 306

31.حمدان خوجة ، إتحاف المنصفين ... ص 78

32. عميراوي ، دور حمدان ... ص 81 .

33. عميراوي ، المرجع نفسه ، ص 81 .

34.حمدان ،إتحاف المنصفين ... ص 44-45.

35 .الحجر الصحي La quarantaine إقامة إجبارية في معزل لمدة أربين يوما عند الثغور لكل وافد أجنبي بسلعته ، سواء كان مريضا مرضا معديا أو مشكوكا فيه و قد أخذ الأوروبيون اسم الأربعين من عدد الأيام التي كان يقضيها الأجنبي المريض بالوباء في معزل قبل أن يدخل البلاد و يتحقق برؤه و سلامته ،انظر إتحاف المنصفين .. ص 46

36. حمدان ، إتحاف المنصفين ... ص 45-46

37. حمدان ، المصدر السابق ، ص 148 -149

38. عميراوي ، دور حمدان ... ص 85

39 . حمدان ، المرآة ..ص 58

40. حمدان ، المصدر السابق ، ص 99

41 . حمدان المصدر السابق ، ص 277

42 .عبد الكريم بوصفصاف ، قراءة تحليلية و نقدية في رسالة " إتحاف المنصفين و الأدباء في الاحتراس عن الوباء " عن أعمال ملتقى دولي في التاريخ حول التغييرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور منشورات جامعة قسنطينة أفريل 2001 ، ص 311 .

43 . أنظر سعيدوني ، من التراث التاريخي ... ص 491 و ما بعدها و أنظر أيضا عن المرآة بحث :

George Yver Si Hamdan Ben Othman Khodja ; Revue africaine vol 57 (1913) publiée par la société historique algérienne pp .96-138

و بحث عميراوي ، دور حمدان .....ص 74-75

44. هذه بعض الأبيات من قصيدة في مدح السلطان محمود الثاني :

تخيرت محمود المعالي على الكبر و يممت ساحات الندى راحة البشر

هو الدهر هبة هو السعد طلعة و أما العلى فمبلغ الشمس و القمر

بسلطنة جدد رونق رسمها و ساس الأمور مخلصا فانمحى الضرر

هنيئا للإسلام دوام و جودة يلاحظ حظ حق الله بالسمع و البصر

فيا ملجأ الخيرات كهفا لعبده قصيدك من أقصى أراضيك بالعبر

فأشكو إليك الدهر شاكر فضله حنانك فاستمع حكمة القدر

رأي عبدك الزمان ضعفي فساقني بآلات حربة لبابك و اعتذر

فشكرا له سله عن الروح هل بقت فما دونها ليك سهل و محتقر

باقي القصيدة أنظر حمدتن خوجة ، إتحاف المنصفين .... ص 52

45. أنظر أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء 7 دار الغرب الإسلامي بيروت ط (1) 1998 ص 253 و ما بعدها .

46.سعد الله ، نفس المرجع ، السابق ....الجزء 7 ص 254-255

47.سعد الله ، نفس المرجع السابق ....الجزء 7 ص 158 -159

48 . عميراوي ، دور حمدان ....ص 77

49.عميراوي ، نفس المرجع ، ص77 و ما بعدها .

50.سعد الله، نفس المرجع السابق ... الجزء 7 ص .452

51. سعيدوني ... من التراث التاريخي ...ص 490 .

52 . دبوز ، نهضة الجزائر .... الجزء 1، ص .133

53 . ساجد أحميد عبل ، نفس المرجع ص 59 .

54 . سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ...الجزء 2 دار الغرب الإسلامي ط (4) بيروت 1992 ، ص 36 55. العربي الزبيري ، مقدمته للمرآة .. ص 28 -29 .

56.سعيدوني ، من التراث التاريخي .... ص 494 .